الخط والخطّاطون في تونس
المدرسة التونسية في الخط :
مرحلة التأسيس والاشعاع

محمد الصادق عبد اللطيف
(تونس)

1 ـ التفاعل بين المشرق وتونس

دارس الحضارة العربية الإسلامية يقف على صرح ثابت لم يتغير منذ أن برزت الدعوة الإسلامية مقرونة بالقرآن والكتابة، وهذا الصرح هو (الخط العربي) الذي ارتبط ازدهاره ونموّه وخلوده ارتباطا وثيقا بتطوّر الفكر والثقافة، حيث كان الخط يتقدم ويزدهر في رحاب ذلك الصفاء الروحي كدليل على امتزاج الحياة المدنية والدينية في الحضارة الإسلامية. ومنذ أن حذق العرب الكتابة وعرفوا قيمة التدوين، قدر للحرف

العربي أن يصحب الفتح العربي شرقا وغربا، وبهذا أصبح هذا الفكر الحيوي واسطة التعبير في كثير من اللغات غير العربية (في الباكستان وفي إيران مثلا). ولمزيد العشق والاحترام أعطى العرب الخط الجميل كل عناية خاصة عند كتابة القرآن. فكان جمال الكتابة مثلا ملاحظا في حروفها من حيث التركيب مما أفاد الخطاط في أن يظهر عبقريته وابتكاره فيما يكتب ويجود ويبدع، وكان للخط انسجام عجيب مع النفوس في الزينة والزخرفة النباتية والهندسية.

لقد استوحى الفنّانون من الكتابة فنا من الفنون هو الخط وما المدارس التي أرّخت لهذا التطور لفن الخط إلاّ علامة مضيئة على أهميته وقدسيته باعتباره اختصّ بكتابة القرآن الكريم وسيبقى.

2 ـ الخط العربي في افريقية

وفدت الكتابة العربية إلى افريقية (تونس) على أيادي الفاتحين العرب سنة 50 هـ 670 م عندما وجّه معاوية ابن أبي سفيان القائد عقبة بن نافع لفتح شمال افريقيا حيث أنشأ مدينة القيروان وجامعها المشهور، فالتف حوله البربر الذين كانوا يعيشون عيشة البداوة والترحال. وكانت لهم كتابة تسمى (تيفنّاغ) لا تزال تستعمل إلى اليوم لدى سكان الطوارق في

الصحراء الجزائرية وفي المغرب (الشلّوح). وفي القيروان عاصمة المغرب العربي الجديدة هلّ الخط الكوفي من المشرق وأخذ سمة قيروانية (نسبة للبلد)[1]

الخط الكوفي هو الخط الذي حمله الفاتحون المسلمون لنشر دينهم وفرضوا في الحين نفسه وجوب استعمال العربية باعتبارها لغة دينية لتعليم البربر عقيدة الإسلام المتناهية في اليسر وصيغ الصلوات. وكانت النسخ الخطية من المصاحف مكتوبة بهذا الخط الكوفي القديم الذي جوّده علماء الكوفة واقتبسوه من الخطوط القديمة لجزيرة العرب وذلك لجلال روعته.

إن نسبة الخط الوافد إلى القيروان أكسبت هذه المدينة أهمية عندما انفصل المغرب عن الخلافة العباسية وصارت القيروان عاصمة الدولة الأغلبية ومركز المغرب العلمي فتحسن بها الخط تحسنا عظيما وعرف بها. ولما انتقلت عاصمة المغرب من القيروان إلى الأندلس ظهر فيها خط جديد يسمى الخط الأندلسي أو القرطبي (نسبة لقرطبة) وهو مقوّس الأشكال بعكس خط القيروان الذي كانت حروفه مستطيلة مزواة.

(1) محمد المنوني : لمحة عن تاريخ الخط العربي في المشرق الإسلامي، مجلة المناهل، العدد 4.

3 ـ الخط القيرواني وأطواره التاريخية

عند الوقوف على كتب المكتبة القيروانية نجد خطوطها آية في التأنق والكمال والقوة، وتلك الخطوط نجدها ذات نوعين:

أ) الخط النسخي الذي يمتاز بالاستدارة والتعريق والنزول تحت السطر والتنقيط (الإعجام). وهذا الخط يكون من حيث استواء غلظه أو دقته أو تضخمه إما مستويا أي غلظه واحدا دائما ـ وأغلب الخطّ القيرواني من هذا النوع ـ أو يدخله الاستدقاق والاستغلاظ.

ب) الخط الكوفي يمتاز بأنّه خط مستقيم أبدا منتصب أو مسطح أو منكب أو معلّق فلا يدخله التعريق والانعراج ولا يكون فيه الخط المنحني أبدا فلا نجده إلاّ زوايا قائمة وحادّة ومنفرجة ولم يدخله الإعجام أبدا وينحدر تحت السطر مطلقا فياؤه الختامية مرجوعة وكذلك عينه.

4 ـ الكوفي القيرواني

يعرف الخط الكوفي القيرواني الذي نشأ بالقيروان بالبديع. وهو كوفي دخله الاستدقاق والاستغلاظ (غليظه غليظ جدا ودقيقه دقيق جدا)، وهذا الكوفي نشأ بالقيروان في القرن 5 هـ وأطوار هذا الخط يمكن حصرها في العهود التالية، وهي أطوار تاريخية للكوفي القيرواني.

1) كوفي عهد الولاة 51 ـ 184 هـ وهو كوفي بسيط خال من الزخرفة ومن التوفية والتأطير.

2) كوفي عهد الأغالبة 184 ـ 296 هـ فيه استقام الكوفي بالتوفية والتأطير ودخله التذهيب والتزويق وبعض الزخرف (المثال مصحف فضل 294 هـ).

3) كوفي العهد الفاطمي 296 هـ وهو كوفي محقق خال من الزركش والبهرجة والتنميق.

4) كوفي صنهاجي 361 ـ 555 هـ وهو خط كوفي كثير الزخرفة (مصحف الحاضنة). لكن في هذه الفترة وبعد تجارب وتجديد وتحديث هذا النوع من الخط والكتابة ملّ الناس تكاثر الزخرف الصنهاجي فحدث انقلاب وعاد التاريخ بالخط الكوفي إلى البساطة والاعتدال.

لقد قسم «هوداس» الخط العربي في شمال إفريقيا في أول عهد للفتح وبعده إلى مدارس بحسب الأمكنة التي جُوّد فيها وحرص على ذكر بعض الفرق التي وصفها بالغموض واعترف بأنه من المستحيل اضفاء دقة أكبر عليها.

5) ومن أشهر المدارس مدرسة القيروان لأنها انفردت بخطها عن خطّ أهل المشرق بعد أن جوّده الخطاطون وطوّروه فبلغ بجهدهم هذا درجة عالية من الجمال والتمكن في صفاء رسومه ودقتها وهندسة حروفها وتبسيط الكوفي وإخضاعه لأغراض التدوين.

5 ـ جمالية الخط الكوفي القيرواني

يعتبر الخط الكوفي من أجمل الخطوط العربية والأجنبية لخروجه عن المألوف وظهوره بمظهر متميز. وجماليّته تكمن في ألفاته الواقفة والمستقيمة وحروفه الملتفة المستديرة التي تنمّ عن حركة في تكوينها وانسجام في أشكالها وارتباط بعضها ببعض، كما تكمن في بعض الزخارف التي أدخلت على الخط (من توريق وتشجير وتضفير).

إن هذا الخط يعتمد قاعدة النقاط الهندسية الثلاث :

أ ـ الطول وهو مستقيم

ب ـ العرض وهو عمودي في السمك.

ج ـ الانحناء الدائري الذي يفيدنا في التعريق[2].

كما أن انتقال الخط إلى إفريقية (القيروان) عن طريق المدينة أولا ثم الشام ثانيا وليس عن طريق بغداد، لأن الخط البغدادي والعراقي لم يظهرا إلاّ في منتصف القرن الثاني الهجري بعد تأسيس بغداد. ومنذ تأسيس القيروان سنة 50 هـ حتى سقوط الدولة الأموية سنة 132 هـ كان الخط القيرواني قد انطلق وثبت. وخاصية هذا الخط أنه متولّد من الخط الكوفي وأنه مكتوب بقلم عريض القطّة يوضع في هيئة ثابتة بحيث تتحرك اليد لترسم هيئة الحروف بدون أن تتغير زاوية القلم وبذلك

(2) الدكتور محمد الشريفي : خطوط المصاحف، أطروحة جامعية 1976.

تصبح أجزاء الحروف الواقعة فوق السطر غليظة، هندسية الهيئة وما تحتها رقيقا بدون أن يخل ذلك بالجمالية والتناسب[3].

لقد انفردت المدرسة القيروانية بخطها وأعلت من شأن الخط العربي وأوصلته إلى درجة كبيرة من الإتقان والتفنّن والمحافظة على الأصول الأولى للخط الكوفي مع تطوير تقنيات الاستعمال واكتسابه مسحة محلية دون الإخلال بجوهر الكوفي العتيق. إن خطوط مصاحف القيروان المتبقية بجامع عقبة أول ما يشدك فيها كدارس :

- أثر الجودة الخطية.
- تنوّع المنبسطات مع الألفات الموزونة الطول.
- دقة الفراغ بين الصواعد وسائر الحروف.
- امتيازها بالشكل المثلث الكبير للحروف ذات الرؤوس كالواو والميم والهاء وكذلك الدّال والسين ليتحد شكلاهما مع الحروف الأخرى.
- رسم عيون هذه الحروف في شكل دوائر صغيرة مفتحة.

ومن المميزات الملفتة للنظر :

أ) عقف الألف نحو اليمين، وللألف المتصلة ولحرف الدال طرف ينحدر عن مستوى السطر.

(3) إبراهيم شبوح، مقال بمجلة الحياة الثقافية (48 و49) عن المخطوطات والمنمنمات التونسية، من ص 123 إلى ص 125.

ب) عراقة الراء والميم خط دقيق لجنب القلم.

ج) ميل قائم الطاء وشكلة الكاف نحو اليمين واستقامتها في ثلثها الأعلى.

د) كِبر رأس العين في الابتداء (سيبقى أثرها في المصاحف ذات الخطوط اللينة).

هـ) للام الألف صورتان إحداهما مضفرة، والفراغ الذي يفصل الخطوط المستقيمة بدقة واستواء امتحان لبراعة الكاتب وإجادته.

6 ـ خصائص الخط الكوفي القيرواني بشواهد القبور

إن تطوّر الكتابة الكوفية القيروانية على شواهد القبور يجعلنا نلمس فيها تطوّر أشكال الحروف وزخرفتها منذ مستهل القرن الثالث إلى أواخر القرن السادس الهجري. كان لهذه الكتابة دور توثيقي هام لأنّ الخطوط الكوفية بلغت درجة عالية في دقة رسم الحروف ونحتها وتعانق الحروف وتشابكها وزخارفها. ولنا أن نلاحظ ما يلي :

أ) قبور القرن الثالث الهجري تميزت بانتشار الخط الكوفي ذي النحت الغائر. وهنا نلاحظ أنّ الكتابة تتسّم بالبساطة وقلة الزخرف (طابع توثيقي فقط).

ب) خلال القرن الرابع الهجري تطوّر الخط تطورا ملموسا على مستوى التقنية والفن في تناول شكل الحروف وطريقة

نحتها فظهر في هذه الفترة الخط الكوفي البارز وحلّ محل الكوفي الغائر.

ج) خلال القرن الخامس الهجري بلغت الكتابة القيروانية على شواهد القبور درجة متكاملة في دقة رسم الحروف ونحتها. وهنا ظهرت الفنيات الجديدة :

1 ـ الحروف المتعانقة والمترابطة

2 ـ انبثقت عن هذه الحروف زخارف نباتية (أوراق).

3 ـ أدى هذا إلى إثراء ملحوظ للعناصر الزخرفية.

4 ـ بانتهاء القرن الخامس الهجري ظهر الخط النسخي واستمر استعمال الخطين معا إلى نهاية النصف الأول من القرن السادس الهجري. أليس الخط القيرواني في هذا المجال حلقة تطوّر حضارية تجمع بين المشرق والمغرب[4] ؟ وبعد هذا أثّر المجتمع القيرواني في منطقة ذات أهمية كبيرة جغرافيا وتاريخيا وحضاريا، فكانت افريقية قاعدة الازدهار الاجتماعي والاقتصادي والعلمي وأهم فضاء للثقافة الإسلامية في عصرها الأول كما كانت مركز إشعاع فكري. وانطلق أبناؤها وعلماؤها يؤثرون في شتى النشاطات بما اكتسبوه من

(4) خالد مودود : النقائش والكتابات العربية بافريقية وتطورها من القرن الثالث الهجري إلى النصف الأول من القرن السادس الهجري. نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1982.

خبرة ومراس[5]. فاحتلت القيروان مركزها العلمي والحضاري والتاريخي رغم تأخر نشأتها واستقرار الأحوال فيها مقارنة بالعواصم الأخرى فأينعت الثقافة الإسلامية في أحضانها ثم ترسّخت وازدهرت بتوالي الاستقرار والاقبال على العلم والثقافة.

7 ـ تطور الخط العربي في عهد الدولة الصنهاجية

في عهد المعز بن باديس ازدهرت العلوم وبلغت الحركة الأدبية من الأوج ما لم تبلغه في أي عهد من عصور التمدن العربي الإفريقي. وكان بلاط المعز من أزهى قصور ملوك الإسلام، بلغت اذاك العناية بالكتب ونسخها وتنسيقها وزخرفتها إلى أوج لم تدركه من قبل كما تشهد بذلك المصاحف المحبسة من لدن عمته أم ملال وحاضنة أبيه فاطمة وأخته أم العلو* وزوجته زليخا. إنّ هذه المصاحف تعدّ بحق آية من جمال الخط ورونق التذهيب والزركشة والتزويق مع كبر الحجم ومتانة الرقوق بما لا يتسنى صنعه وتدبيجه إلاّ في بلاط بلغ الذروة في الذوق والتفنن.

---

(5) الدكتور عبد المجيد بن حمدة : نشأة الثقافة الإسلامية بالقيروان : مجلة جامعة الزيتونة بتونس 3/ 1993.

* انظر : «شهيرات التونسيّات» لحسن حسني عبد الوهّاب.

8 ـ شجرة الخطاطين

حفظت الآثار أسماء الخطاطين الذين كانوا يتداولون النسخ في بلاط المعز بن باديس أيام الدولة الصنهاجية، منهم:

1) الحارث بن مروان و«ابنه» يحيى من أبناء القيروان. كان خطهما بقلم النسخ وكذا بالقلم الكوفي في طوالع الكتب من أمتع الخطوط وأوضحها وأمتنها قاعدة، وكانا ينسخان الكتب دوما للخزانة الأميرية (آثار قلمهما موجودة فيما بقي من الرقوق المحفوظة بمكتبة القيروان).

2) علي بن أحمد الوّراق من نساخ القصر الصنهاجي. كان يميل بخطه إلى أوضاع الكتابة البغدادية الراقية في عصره مع إتقانه البديع للرسم والتذهيب والتجليد.

3) درّة الكاتبة كانت تعاصره وتلازمه في الكتابة وقد وصل من آثارها «مصحف الحاضنة»، العديم النظير.

4) ابراهيم بن سوس المازدني من كتّاب ديوان الرسائل في دولة المعز، عرّف به مُعاصره ابن رشيق في كتابه «الأنموذج» بقوله: «أخذ بطراف العلوم». غير أن الغالب عليه الخطّ وتزويقه، كان عنده من ذلك أمر عجيب وقد انفرد في مغربنا بالقلم السريّاني الحافي انفرادا كليا لا يدانى فيه ولا ينازع[6].

(6) حسن حسني عبد الوهاب، الورقات، ص 245.

5) عبد العزيز بن محمد القرشي الطارقي وكان أيضا اشتهاره بالنثر دون النظم إذ كان فيه فارس الفرسان ووحيد الزمان ما بين تزويق مقامة مبتدعة أو خطية غير مفترعة إلى الرسائل السلطانية والكتابات الاخوانية وله من الخط البارع خط المحلي من قدّاح الميسر[7] .

6) أحمد بن محمد القصري المتوفى سنة 322 هـ وكان فقيرا جمّاعا للكتب حافظا لها. وكتب بيده ما لم يكتبه أحد من أهل عصره، حتى أنه كان يقول : منذ أربعين عاما لم يجف لي قلم. قال المالكي : وصل مرة إلى سوسة ليزور شيخه، يحيى بن عمر، فوجده ألّف كتبا فلم يجد القصري ما يشتري به رقوقا ينسخه عليها، فمضى إلى السوق وباع قميصه واشترى بثمنه رقا ونسخ الكتاب وقابله وأتى به للقيروان[8] .

7) أبو العرب محمد بن أحمد التميمي حامل لواء تاريخ القيروان (مات سنة 333 هـ) وكان كثير الكتب جدا حسن الخط والتقيد.

وفي العصر الحفصي كان الخط في تونس متقدّما وتزعم حركته أبو بكر بن فتح الغماري النفزاوي الطرّي (كان حيّا عام 706 ـ 1307). ويعتبر خطّاطا رائداً في إبداع الكتابة الإفريقية إذ

(7) حسن حسني عبد الوهاب، الورقات، ص 245.

(8) حسن حسني عبد الوهاب، الورقات، ص 245.

يقول فيه التجاني* في رحلته (طبعت سنة 1378/ 1958) له تقدّم في حسن الخط وقد انفرد فيه بطريقة اخترعها لم تُعرف قط في أنواع الخط المعدودة وبرع فيها في وقتنا هذا جماعة من أهل الجريد أخذوها عنه. لقد احتضنت تونس في هذه الحقبة من تاريخها الحفصي تراث الأندلس المهاجرين إليها فتجدّدت بها رسوم العلوم وسادت الخطاطة الأندلسية متفاعلة مع تقاليد افريقية الفنيّة.

وهذا ابن خلدون يستعرض مراحل الخط مؤرخا لفترات ازدهاره معتبرا أن نمّو الخطاطة كان بفضل الحضارة والعلم والعمران ذاكرا خصائص الخط في العهد الحفصي ومشيدا بالأندلسيين الذين استقروا بتونس وساهموا بفضل حذقهم لفنون الخط في تركيز طريقة للكتابة تميزوا بها. ولكن أهل افريقية على هذا العهد حافظوا على نوعية خطوطهم وإن بلي بعضها «فغلب خطهم على الخط الافريقي وعفى عليه ونسي خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعهما. وصارت خطوط أهل افريقية كلها على الرسم الأندلسي بتونس وما إليها لتوفر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس. وبقي منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الأندلس ولا تمرسوا بجوارهم. إنما كانوا يفدون على دار الملك بتونس فصار

* انظر : «رحلة التجاني»، حققها وقدّم لها حسن حسني عبد الوهّاب.

خط أهل افريقية من أحسن خطوط أهل الأندلس، حتى إذا تقلصّ ظل الدولة الموحديّة بعض الشيء وتراجع أمر الحضارة والترف بتراجع العمران نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومه وجهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران. وبقيت فيه آثار الخط الأندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك» (المقدّمة، ط. بولاق، ص 398).

9 ـ التأثير التركي في الثقافة الخطية بتونس وبدايات التطوير

للأتراك فضل في ازدهار الخط العربي وتطوّره، منحوه عمقا وبهاء وجعلوه فنّا متميزا، ينبع من أصول الحضارة الإسلامية. وتُعدُّ خطوط المدرسة التركية من أجود الخطوط الإسلامية والعربية لما احتوته من قيم جمالية وإبداعية في ضبط قواعد كتابة الأحرف والزخرفة، ولأنها أخذت عن المدرسة المصرية قلم الثلث فبنت عليه وأبدعت فيه فأصبح للخط مذاق خاص هو خلاصة الرحيق العاطر الشذى الذي يضيف لتراث الإسلام الفني (الإعجاز) العبقري الذي صنعه القلم، وقد تناولته يد الإنسان المبدعة لتعطيه لنا تقاسيم وأنغاما. ضبط الأتراك رسوم الخط وطوّروا الخطوط الكلاسيكية وأبرزوا صورا منه في كتاباتهم وخطوطهم فكثرت الكتابات الجيّدة التي حملت وما تزال نفحة قدسيّة لهذا الفن. لقد بذل الخطاطون

الأتراك جهودا فنية في الخط، وأينما حلّوا كان الخط وسيلتهم للثقافة المشتركة ممّا لفت النظر إلى هذا الوافد الجميل باعتباره إسلاميا وعربيا ساهمت الشعوب في شموخ صرحه فعمّ كافة أماكن التواجد التركي باقتدار وشمولية.

أيام تونس العثمانية مسّها هذا التفاعل في الخط بما وجدته في خطوط الأتراك من جمالية جديدة رغم صعوبة التفاهم الثقافي والحاجة إلى مترجم يقف واسطة بين الباث والمتلقي لهذه الثقافة الجديدة، وهي التي كانت تكتب بالخط المغربي المتولد عن الكوفي القيرواني في مشاهد قبورها ومراسلات علمائها وأسماء عائلاتهم. إنّ التطوّر الذي طرأ على خطوط أهل تونس كان على يد الأتراك الذين حملوا هذا الفن وعلّموا أهل تونس أصوله ورفعوا مستواهم فيه وطوّروا مكتسباتهم الخطيّة إلى درجات جديدة من الابداع والتجديد. وقد صار الخط التونسي يتخذّ ملامح النسخي، تتكوّن الحروف فيه من أسطر غليظة مليئة مكتنزة تتتابع بانتظام دون أن تتجاوز الحدّ إلى فراغ ما بين السطرين. وكان من ثقل التأثير التركي الطويل المدى أن أكسب شؤون تونس دورا أكثر شرقية[9] حيث ظهر الخط التركي في العاصمة بالتربات وبالقشل فأظهر التفاعل الجيّد الذي انطلق به الخطاط التركي في تونس لبناء

(9) حسن حسني عبد الوهاب، الورقات، ص 245.

جسور التواصل الثقافي بما تركته تلك الأقلام من روائع الخطوط وإبداعها.

تأثرت تونس بالتطوّر الذي صاحب الحرف العربي لمّا حلّ الأتراك بتونس حيث حملوا معهم هذا النوع الفنّي وهذه الرّؤية الجمالية الجديدة للخط العربي فزرعوا البذرة الأولى فيها. ووقع تطوير الكتابة المحلية مع تعلق شديد بخطهم القديم (الكوفي) المتطوّر في تونس نتيجة لهذا الاحتكاك الثقافي الوارد مع التلاقح التركي، وخاصة أيام المراديين حيث تخلّص الخط التونسي من صلابته إلى ليونة جديدة دخلت مجال الاستعمال الخطي الإعلامي وحيث شاهدنا خطا مستحدثا على شواهد القبور كالذي كتبه أحمد القبجي على شاهد قبر محمود باي بن يوسف باشا 1235 هـ ونقشه بإزميله[10]، وذلك الخط المستحدث هو خط الثلث وخط النسخ، ثم اتسع مجال الاستعمال في مدارس سكنى الطلبة الزيتونيين بالسليمانية وبالباشية وبالجوامع الحنفية : صاحب الطابع، وحمودة باشا، وسيدي يوسف وبمقام سيدي محرز حيث اللوحات الخطية آية في الاتقان والجودة لا تزال إلى اليوم تحكي بقوة خطها ما وصل إليه فنّ الخط العربي في تونس من اهتمام وتطوير وذوق. أثّر هذا في مسار الخط، فطلع علينا

(10) علي مصطفى المصراتي : رسائل أحمد القبجي القليبي، تونس ـ ليبيا 1973

الحاج زهير[11] بمصحفه (بخط مغربي) متطور عن الكوفي القيرواني القديم، وظل هذا النوع من الخط حبيس الكتاتيب والمصاحف. وظهرت أسماء ملأت الساحة الخطية بكتاباتها وإن لم تترك أثرا لقياس مدى الحذق والتفنن في هذا الخط، مثل الفخري والتواتي والمختار الذويب والمطيبع ومحمد الشافعي والصادق الرزقي والقديدي، حتى إذا عمّ انتشار الخط العربي في العهد الحسيني بواسطة الفروع الزيتونية إلى الستينات ظهرت خامات جيّدة في كتابات بعضهم، وإن لم يمارس جلّهم الخط الفني الرفيع لأنه كان يدرس كمادة إجبارية لتلاميذ السنتين الأولى والثانية، ثم اتّسع معها مجال التدريب والتقليد ليصل إلى المدرسة الصادقية بالأقسام التكميلية التونسية، ثم إلى مدارس ترشيح المعلمين والمعلمات بالعاصمة وأخيرا إلى جميع المدارس الابتدائية بكافة تراب تونس بالسنوات الأولى والثانية والثالثة، حيث يتولى تدريس الخط فيها معلمون ليس لهم اختصاص وبالتالي لم تظهر كفاءات يعوّل عليها لتطوير مسار الخط العربي وإرسائه في الناشئة على قواعد سليمة تخدمه مستقبلا.

(11) طبع من طرف الدار التونسية للنشر 1976.

10 ـ المدرسة التونسية في الخط (مرحلة التأسيس)

يمكن أن نعتبر المحطات التي ذكرتها النواة الأولى لهذه المدرسة التي لم تأخذ شكلا مستقلا عن المشرق ولم تتعد مرحلة التقليد والمحاكاة رغم ما قامت به مدارس الشرق من ابتكار وتوسّع وتفنن، وظلت تونس متأثرة بالنّسق الشرقي خطا وفنّا وجمالية إلى الربع الأول من هذا القرن حيث قيّض الله لها الخطاط المرحوم محمد الصالح الخماسي وزملاءه من الخطاطين الهواة العصاميين أمثال محمد الصادق الصدقاوي وأحمد المختار الوزير وفتحي الزليطني وعيّاش معرف والبشير العريبي والكافي السلامي (خبير الخطوط) ويوسف خماخم والحبيب عصمان وعبد العزيز الخماسي وتوفيق بوغدير وحاتم المكي وعلي الدوجاعي وسعيد أبو بكر والتيجاني المحمدي وغيرهم، فحملوا لواء هذا الفن في إصرار وثبات وعملوا ما في وسعهم لتركيز الخط كفنّ في الناشئة التونسية والجزائرية والليبية، سواء في المدارس القرآنية الأهلية أو في المدارس الزيتونية الثانوية. وكانت الضرورة تقضي تلقين أصوله وغرس مبادئه دون تقنين أو بيداغوجية خاصة بهذا الفنّ حيث لم يدوّن فنّ تدريس الخط ضمن برامج مدققة وهادفة تخدم المجالين المعرفي واليدوي. ولذلك فالخط لم يبلغ منزلة الفن

الرفيع كشأنه عند الأتراك إلاّ عندما انتهت رئاسة الخط العربي في العصر الحاضر إلى أستاذ الأجيال محمد الصالح الخماسي. لقد كان المجدّد والثابت وصاحب الآثار المتعددة وعليه قامت ركائز المدرسة التونسية للخط والمكملة للمدارس المشرقية بما تركه من بصمات في تلاميذه وما خلفه من إنتاج خطي يشهد له فيه بالريادة والسبق والابتكار والتربع على عرش المبادرة. إن الخطوط العربية التي كُتبت في اللوحات أو في العناوين التي زينت المجلات والصحف والكتب وشواهد القبور وأسماء الإدارات والمحامين والأطباء، وما احتوته تلك من قيم جمالية وإبداعية في ضبطها لقواعد كتابة الحروف وتوزيع الكتلة الخطية والزخرفية، تشهد بحق لعصامية الخطاطين الذين لم يتتلمذوا لأحد إلاّ لأنفسهم ارضاءا لهواية في أنفسهم لا غير.

والمدرسة التونسية المعاصرة في القرن العشرين تلمع بأسماء عديد الخطاطين (وإن كان البعض منهم لم يترك أثرا خطيّا) وهم الذين حملوا في صمت وإباء وتحدٍ جذوة هذا الفن فيما لقّنوه لتلامذتهم من مبادىء وقواعد ومراحل وتقنيات، وخاصة ما كان يقدّم في المدارس من طرف خطاطين هواة وفي جميع المدن الكبرى باعتبارها تأوي معاهد زيتونية خاصة.

11 ـ مدرسة الخماسي الخطية وإشعاعها

أول بادرة للخماسي هو التصدي لإثبات الشخصية التونسية للخط العربي واستقلالها عن التبعية بأن نذر نفسه للخط بحثا وكتابة وتجويدا، فاتجّه للحقل الصحفي وتخطيط العناوين وبطاقات الزيارة الجامعة بين الإبداع والفن والروعة ثم إنتاج لوحات خطية متنوعة المضامين تشمل جميع أنواع الخطوط المتداولة في العالم العربي والإسلامي لإظهار قدرته وتمكنه من الخط الحسن، وأخيرا طبع كراس الخط بعد بحث وتنقيب، وملأ الساحة التعليمية بالحضور وتلقين أصول الخط على قواعد فنية سليمة وإحداث مطبعة لترويج إنتاجه الخطي خاصة.

لقد تعزّز جانبه عندما أسند إليه تدريس أصول الخط العربي في جامع الزيتونة سنة 1936، ثم بالمعهد الصادقي سنة 1941، ثم ترشيح المعلمين والمعلمات وأخيرا تكوين شعبة حرّة في معهد الفنون الجميلة (تابع لكتابة الدولة للتربية القومية)، وكان يلقّن فيها أصول الخط وهي دروس حرّة سيكون لها الأثر الفعّال لتعزيز ما يدرس بالزيتونة خاصة. على أن أهم خميرة ظهرت في الساحة الخطية الإعلامية والإشهارية قبل الاستقلال الوطني نتيجة لهذا الجهد الفردي من الخماسي بروز عديد الخطاطين منهم محمود العبيدي ومحمد جميل بن

رجب والجلولي وعبد القادر الجربي وعيسى المعموري والحبيب بن عياد وكاتب هذه السطور والأمين وصالح وطاقة والتهامي وتعاريت، وهو جيل متأثر بالخماسي ومتكوّن على يديه، تتلمذ له إما مباشرة أو بواسطة كراريسه أو لوحاته أو دروسه الحرّة. ويحمل المشعل اليوم من الخطاطين عمر الجمني وطارق عبيد وحسن الكحلاوي والمختار علي وابراهيم ميلاد وعبد السلام الشرفي والمنجي عمّار والنخلي ونور الدين عوني والدريدي والغول والميزوني المسلمّي ومحمد الهاشمي المحجوب والجيلاني الغربي وفرج ابراهيم ومصطفى الكيلاني ومنصور بوغانمي ومحيي الدين شيبوب (توفي) والجباري ومحمد العربي والطاهر المليكي ورشيد عبد الكافي ومحمد الهادي قلبي وفتحي المؤدب وعمر العشي ووفاء بن حميدة والصغيّر بن ظافر والرحموني والمنوبي والعجنقي وأحمد الزبيدي وغيرهم ممن يمثّلون خير رجاء في الإرتقاء بالخط ودفعه إلى الأمام. فهم خلاصة قرن من التجربة الخطية في تونس، بهم تأسست المدرسة التونسية الحديثة للخط العربي[12] كامتداد لمدرسة الخماسي الخطية. لقد انتشر الخط وامتد إلى الجزائر بواسطة تلاميذ الخماسي الذين تتلمذوا له في الزيتونة، منهم

(12) محمد الصادق عبد اللطيف، في انتظار بعث المركز الوطني لفنون الخط، جريدة الرأي العام، 29 أكتوبر 1994.

علي شطاب وعبد الرحمان غلاء الله والخطاط الرسام حكّار[13].
ولا شكّ أن في ليبيا أيضا من تتلمذ له وحمل مشعل الخط العربي وأرساه هناك لمّا درسوا عليه في الزيتونة أيضا. تعد كتابات الخماسي مؤسس المدرسة التونسية للخط العربي من أجود الخطوط العربية المعاصرة بما حوته من قيم جمالية وإبداعية في ضبطه لقواعد كتابة الحروف وتوزيع الكتلة الخطية والزخرفية في جميع أعماله الخطّية. ولقد خلّف كراسه «المنهج الحديث لتحسين الخط العربي»[14] الذي يعدّ ثروة خطية خالدة نهل منها خطّاطون كثيرون في المغرب العربي لا يزالون يمارسون أسلوب أستاذهم ويحافظون على روح مدرسته بتدريسهم للخط في دور المعلمين (المعاهد العليا لتكوين المعلمين حاليا) أو امتهان الخطاطة في مؤسسات الدولة وهياكلها أو الاشتغال في التعليم الابتدائي والثانوي وإرضاء رغبة شخصية في إنتاج لوحات خطية أو كتابة عناوين بعض الكتب والدوريات لدى بعض المطابع أو باتخاذهم الخط وسيلة عمل أو ارتزاق (كتابة مشاهد القبور وإعداد لافتات الإشهار).

إن كراس الخماسي «المنهج» أعد بطريقة مبسطة شاملة تعنى بالناحية الإيضاحية والتوجيهية سواء لمن كان يدرس الخط

(13) البشير العريبي، من كلمة التأبين يوم وفاة محمد الصالح الخماسي. جريدة الصباح 26/ 5/ 1992

(14) ظهرت أول طبعة سنة 1951 (تغير العنوان حاليا إلى كراس للخط).

بدون معلم أو عامة تلاميذ المدارس. وقد حدّد جمال الخط بأنه يتوقف أساسا على القلم الذي يكتب به. ولا شك أن قسما كبيرا ممّن يعنون بالخط العربي كان من أولئك الذين تعلّموا الخط بهذا الكراس أيام دراستهم الابتدائية أو الثانوية، وهم اليوم في تونس نخبة نيّرة من الشباب والكهول لهم خبرة بالخط العربي وفنونه وأنواعه وخاصية كل نوع خطي ومرجع كل لون ولأي جهة ينسب ويعود. ويتوقع أن يكونوا خليفة لأستاذهم الخماسي وامتدادا لروحه. ويشارك بعضهم خارج الوطن في مسابقات دولية للخط في استانبول والعراق والمغرب للحصول على مكافآت وجوائز تقديرا لهم على حذقهم ومهارتهم ومعرفتهم الجيدة للخط، بل وصل الأمر إلى إعداد أطروحات جامعية في تونس حول الخط ودراسات عليا لنيل شهادات الكفاءة في البحث والتعمق في البحث وهو مجال جديد من شأنه أن يدعم المدرسة التونسية في البحث الخطي[15].

لقد كان الخماسي أحد المبدعين الذين أثمر إصراره فأصدر مجموعة كراريسه الخطية «المنهج الحديث لتحسين الخط العربي» كخلاصة لتجاربه الفنية والتراثية. والذين يعرفون الخماسي من تلاميذه وزملائه في الدراسة بالزيتونة يعرفون أنّه

15) الحبيب بيدة أعدّ بحثا جامعيا بعنوان (فن كتابة وزخرفة المخطوط القرآني) شهادة التعمق في البحث 1980.

كان يعيش الواقع ويتفاعل مع الخط في حلقات الدروس، في المحاكاة أولا ثم الابتكار والتجويد ثانيا. وقد حوّله كل هذا إلى مثال ونموذج لأنه جمع بين المهارة والموهبة، بين خصوبة الخلق والثقافة، بين الخط كفن وعلم وبين التدريس والتأطير.

12 ـ الكراس الخطي التعليمي في تونس

أدى إقحام مادة الخط العربي في البرامج للتعليم[16] الابتدائي والثانوي والترشيحي الى احتياج التلاميذ إلى زاد يعين الدارسين. فكانت الكراريس إحدى الوسائل الفاعلة التي اعتمدها مدرسو الخط لتعميق وترسيخ العناية بالخط العربي لدى التلاميذ. وتخضع الكراريس التعليمية أساسا للجنة اختيار في صلب الوزارة ويُراعى في محتواها العام وفي مراحلها : تدرّجها وتلاؤم تلك العناصر مع القدرات الذهنية والعمرية والمعرفية التي يجب أن تتوفر فيها، وذلك لنشر الوعي الخطي وإصلاح التشويه في كتابات التلاميذ وأخيرا تكوين خطّاطين قد يحترفون الخطاطة فتتزين بخطوطهم المحلات التجارية والادارية الحكومية والإعلانات في الصحف وقاعات التعليم وقاعات الجلوس ولافتات الإشهار والأختام.

(16) النشرة الرسمية لإدارة التعليم العمومي (ديسمبر ـ جويلية 1947 وجانفي 1950 وكذلك برامج ترشيح المعلمين 1950).

- لوحة بخطّ الثلث والنّسخ (27 x 61 سم)
- مصطفى عبد الحليم أوزيازيجي
- (1315 ـ 1384 هـ / 1898 ـ 1964 م)
- كتاب «فن الخطّ» ـ لوحة 180

- لوحة من الثلث الجلي (25,5 x 50 سم)
- الحاج محمّد نظيف بك
- (1262 ـ 1331 هـ / 1846 ـ 1913 م)
- كتاب «فن الخطّ» ـ لوحة 178

- من مجموعة مركز الأبحاث للتّاريخ والفنون والثّقافة الإسلامية باستانبول (إرسيكا)
- كتيّب «أيام الخط العربي»

- من مجموعة مركز الأبحاث للتّاريخ والفنون والثّقافة الإسلامية باستانبول (إرسيكا)
- كتيّب «أيام الخط العربي»

يجري التركيز أولا في دروس الخط على النسخي (في التعليم الابتدائي) بصفة خاصة ثم يتسع مجال الاستعمال والتدريب إلى الأنواع الأخرى في دور المعلمين إلى بقية الخطوط الأخرى واستعمالاتها ومدارسها وأعلامها. وقد يختصر التكوين اليدوي إذا كان التلميذ قد تعلّم بالكتّاب على مؤدب يحذق الخط بقلم القصب فتلقى الأصول الجمالية الأولى للحرف العربي والكلمة المعبرة إذا كان خط المؤدب جميلا وواضحا وخاصة الخط المغربي الأصيل البيّن الذي كان سائدا في جميع الكتاتيب والذي كُتب وتكتب به جميع المصاحف الخطية المتداولة قبل انتشار الطباعة الحديثة. ولو حصرنا لائحة في الخطاطين الممتازين قبل تقنين فن الخط وتعليمه رسميا في المدارس الحكومية والأهلية الخاصة لوجدنا أكثرهم انحدر من الكتّاب وهي المدرسة الأولى. وفي هذا المجال يمكن حصر لائحة أولية بما صدر من هذه الكراريس على مدى أربعين سنة والتي لم تروّجها الوزارة (إلاّ واحدة)، ولكن الذي ورد فيها معتمد أساسا في البرامج الرسمية (للتعليم الابتدائي والثانوي) دون الضغط على الجانب الفني فيها.

يأتي الخماسي على رأس القائمة بدون منازع بعد تدريس أصول الخط والبحث فيه وإنتاج عيّنات خطية متنوعة وشاملة

لجميع أنواع الخطوط المتداولة. وإنّ ما أ نتجه الخماسي من كراريس ووثائق تعدّ المصدر الأصلي للثقافة الخطية في تونس وفي بقية أقطار الشمال الافريقي.

إننا نحتاج لكتابة سليمة واضحة قبل الكتابة الفنية ولن يتسنّى هذا إلاّ إذ كوّن الأستاذ المعلم الذي سينشر البذرة في تلاميذه ويخلق فيهم الرغبة الفنية التي تعطي ثمارها بعد الاختيار. وقد يؤول تطبيق الأمر الجمهوري في إحداث المركز الوطني لفنون الخط[17] إلى تكوين هواة الخط ومحبيه ومنحهم شهادة تؤهلهم لحمل لقب خطاط عن جدارة واستحقاق.

17) أمر رئاسي عدد 3669 لسنة 1994 مؤرخ في 8/ 11/ 1994 يضبط إحداث وتنظيم المركز الوطني لفنون الخط ضمن المعهد الوطني للتراث.